حول توثيق الارتباط بتراثنا

بقلم عبد الحميد العلوجي

وجدتني اسقط ، في معرض الاصطفاء بين الابحاث التي استقامت نهجا لادباء هذه الدورة ، على « توثيق الارتباط بالتراث العربي » .. لانه موضوع طالما توثبت الاقلام في مزالقه دونما مبالاة .. لتؤكد مفهوم التراث بما يرفع التوهم ، ولتلهب الرغبات والدوافع في سبيل عرفانه واحيائه ورعايته .. ولكنها رغم هذه الاريحية والنجدة والمساعفة ـ لم تجاوز مدى الزعم ، ولم تسلم من الاعتباط والشط ، فكان تحرجها في السلوك والرأي سببا الى اقتحامي حكاية التراث .

انني أفهم التراث Heritage انماطا حضارية تطورت بين تحوير وتعديل لتنحدر من الاصول جيلا عن جيل ، كما أفهمه شخصية مستمرة غادرت ماضيها الى حاضر وقد تغادر حاضرها الى غد . . وهذا المفهوم يصدق على التراث العربي دون تعسف : فقد كانت تركة العرب الفكرية مترامية الابعاد ، وكانت تتجدد بخصوبة بعد ان احتازت المجد العربي كله ، وعانقت الثقافات الوافدة

وافهم أن وراء التراث العربي عقلية ثاقبة تغلغلت حتى الاغوار ، وتشامخت على القمم ... عقلية استطاعت أن تلد ما يسميه فاليري بالحال الشعرية Etat Poétique وان تكشف عن طبيعة الواقع الجمالي ، وتتمادى في التخاشع الصوفي ، وتعايش الفن والعلم والاخلاق ، وتجادل بالتي هي أحسن وتغني للانسان .

واستغرق التراث العربي من المؤلفات ما لم يستغرقه تراث آخر ، فقد حفلت به خزائن الكتب في بغداد ودمشق والقاهرة وحلب وايران ومدن الاندلس وما وراء النهر والشمال الافريقي وبلاد الهند .. ولكن هذا التراث اصبح ، مع الايام ، هدفا للخطوب والنوازل والكوارث ، ونهبا موزعا بين العطب والضياع .. ولم يبق لابنائه منه الا ثمالة عزيزة ، قليلها ذليل في مكتبات الشرق ، وكثيرها مصون مرفه في مكتبات الغرب

وعلى هذه الثمالة عكف العلماء عربا ومسلمين ومستعربين ـ منذ القرن السادس عشر في ايطاليا وهولندا وانكلترا والدنيمارك ، وبعدئذ في المانيا وفرنسا وروسيا والنمسا واسبانيا والسويد ، ومنذ القرن الثامن عشر في مصر والعراق وسوريا ولبنان وتركيا وايران والهند ، ومنذ القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الاميركية ـ ينشرون ما راق لهم في طبعات ليثوغرافية باديء بدء . وفي طبعات حديثة اعتمدت التنضيد الحرفي أحيانا وذرائع الاوفست وتصوير الالواح المصورة أحيانا أخرى . .

واولئك العلماء جميعا ثابروا ـ من حيث لم يحتسبوا ـ في عملية الاحياء Animation التي استهدفت بث الحياة في هوامد المخطوطات تصحيحا وتقويما وتصويبا وتحقيقا .

والجدير بالتنويه ، في هذا الصدد ، أن القائمين بهذا الاحياء من غير المستعربين كانوا يعالجون المخطوط العربي بما يورث البرء والعافية تمهيدا لنشره ، وهم بذلك لم يجهدوا انفسهم ، عند استطلاع النص ، بأكثر من ازالة الخطأ واستبعاد الغلط ، وكان أحدهم حين يرتطم بالتضارب والتصادم والتنازع في النصوص المتصدعة أو المتداخلة أو المتناقضة أو المتناكرة .. يشارك سواه في الاعباء استسهالا للصعب .

اما المستعربون فقد اعتمدوا المنهج العلمي اداة في استنطاق الكلمة المخطوطة ، وهم أول من أدرك حاجة المخطوط العربي الى ما يشبه عملية التعدين التي صاغها التطور الصناعي فنا خاصا باستخلاص المعادن وسبكها .. ولذلك وجدناهم يعذبون المخطوط بقسوة هادفة خلال التحقيق سواء باستقراء الكلمة أم بالتعليق النقدي عليها أم بدحض الشبهات التي تحوم حولها .

وفي الربع الاول من القرن العشرين استشم المفكرون من سدنة التراث العربي ضرورة انفرادهم بعملية التحقيق العلمي وتعقيم التراث المخطوط من دسائس ذوي الاهواء ، ومن الانتحال المجرم .. ليرسخوا، بعد ذلك ، على المخطوط العربي الذي زايل جيله ألف سنة أو اكثر أو أقل ، ثم رمته الايام بين الغرباء .. لا يمكن أن يرى النور في سلامة وعافية الا آذا اعتضده الوارثون بالعلم والامانة والحنان .. فبغير هذا لن يستطيع أن يستوعب جدارة الحياة في مواجهة الحضارة الراهنة .

وغب الحرب العالمية الثانية انتهت حماقة التطرف ببعض الدعاة الى أن التراث العربي عبء ثقيل يعيق الوثبات ويقاوم الانطلاق ، وان التشبث به نكوص عقيم وهجرة الى فراغ .. وكان لهذه الاحموقة آثار وبيلة زحفت بهؤلاء الدعاة الى تأكيد الاستغناء عن الامجاد التراثية.

وتلك دعوة شاذة أثارت الاستهجان .. ولكن أصحابها بثوها بين الناس ضرورة منصوصة في مواجهة الذين يدرسون ميراث الماضي تحديدا للامح الاصالة العربية .

وفي منتصف القرن الراهن اندلعت في الوجود العربي ، خلال صراعه الرهيب مع القوى الامبريالية ، ارهاصات دلت ـ في وقتها ـ على كياسة ثقافية ، فقد ظهرت اكثر من علامة رامزة تكفر بالعدول عن التراث ، وتلعنه ضربا من جنون ، وتحمد التركة الحضارية لازمة كفاحية ضد الامبريالية العالمية ، وتستقر على ان من اوجب الفرائض في مناجزة هذه الضراوة توثيق الارتباط بالذخائر العربية .

وقد تواضح هذا الاتجاه في مؤتمر الادباء العرب الاول الذي شهده ايلول سنة ١٩٥٤ في لبنان . فهذا المؤتمر وان تم انعقاده في غمرة الكفاح الوطني والقومي لتخليص الشعب العربي من السيطرة الاستعمارية ، لم ينس التراث .. فقد « اوصى جامعة الدول العربية بالمزيد من العناية بنشر المخطوطات العربية ، وتعميم مصورات المخطوطات على دور الكتب العامة في العالم العربي ، وتمكين الباحثين من الحصول على هذه المصورات . وأوصى الكتاب العرب والمؤسسات الثقافية بالعمل على بعث التراث العربي القديم وبحثه في ضوء المفاهيم الحديثة التماسا لربط الماضي بالحاضر ، والافادة منه في سبيل النهضة العربية » .

وحين انعقد المؤتمر الثاني في بلودان بالجمهورية السورية خلال شهر ايلول من سنة ١٩٥٦ .. استقام حشدا للوجدان العربي في مواجهة العدوان الاستعماري الذي كانت نذره تلوح عن كثب ، ولكنه ـ رغم ذلك ـ اكد بين وصاياه « مهمة الاديب العربي القومية في حماية التراث العربي ، وفي نصرة القيم الانسانية التي يتميز بها تراثه ، كما أكد ضرورة الاهتمام بالتراث العربي القديم » وكان من بين مقرراته « المعاونة على نشر التراث القديم نشرا علميا وشعبيا يسمح بتمام الاستفادة منه والتزود من اثره في اغناء حياتنا الادبية ، وكذلك المعاونة على بعث التراث الفني العربي ، وتبسيطه ، وابراز جوانب الاصالة فيه

تمكينا للنهضة الفنية المعاصرة وتثبيتا لجذورها في ماضينا القومي .

واحتشد الادباء العرب في مؤتمرهم الثالث الذي عقدته القاهرة خلال كانون الاول من سنة ١٩٥٧ .. وعهدئذ نضج شعار القومية العربية مع احتدام معارك التحرر الوطني ، وبات الاستعمار يهدد استقلال سوريا .. ورغم ذلك اوصى المؤتمر بالحرص « على ان تكون عناية الادب بماضيه وحاضره سبيلا الى المستقبل الافضل » كما أوصى بوجوب « العناية بالتراث الشعري والاستفادة منه ، والعمل على نشر ما لم ينشر من هذا التراث ، واقامة مهرجانات ادبية في البلاد المختلفة للادباء الذين اغنوا التراث العربي ، واغتنام هذه الفرص لتأصيل الروح الادبية والاهداف القومية » .

ثم تداعى الادباء الى مؤتمرهم الرابع الذي احتضنه الكويت مع بعض ايام كانون الاول من سنة ١٩٥٨ .. وكان هذا المؤتمر يعبر عن تهاويل الازمة الشاملة التي اجتاحت الوطن العربي حينذاك ، فمزقت قواه الثورية والتقدمية ، وشغلتها بالخلافات الداخلية عن الاستعمار والصهيونية والرجعية .. ولكنه رغم هذا التعبير الدامع عالج التراث العربي بما جهلته المؤتمرات الثلاثة السابقة ، وافلح في الوزن والتقييم، فهو بعد ان اعتبر التراث عنصرا أساسيا في كيان العرب الاجتماعي جعله مقوما جوهريا من مقومات وجودهم النفسي .

وسجل شباط ١٩٦٥ انعقاد المؤتمر الخامس في بغداد .. والوطن العربي يوزع نضاله المرير بين جهاد الخلاص من الاستعمار وبين كفاح التحرر من الاستغلال .. وكان للتراث العربي من هذا المؤتمر الدعوة الى « تخليصه من الشوائب الدخيلة ، وتقديمه الى الناشئة وجمهرة المتعلمين والمثقفين ليثير فيهم الاعتزاز بامتهم وتراثها الحضاري ، والمثابرة على تدعيم حاضرهم بماضيهم من أجل مستقبلهم » .

أما المؤتمر السادس الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٦٨ ، فلم اقع على وصاياه .. ولذلك اجهل ما قيل فيه حول التراث . ومع ذلك استطيع الذهاب الى ان جميع المؤتمرات السابقة تعاهدت على توثيق الارتباط بالتراث العربي .. ولكنها لم تشخص هذا التوثيق ولم تقس أبعاده ، وقد حملني هذا التساهل على القيام بترسيم ما لذاك التوثيق من ابعاد .. ليكون منطلقا الى ما يصح سياسة هادفة في الموقف العربي الثابت من قضية التراث .

وهذا الترسيم لن يتحقق الا اذا عالجنا مغالق التراث مفهوما ومطارح ، وابانئذ نستطيع ان نقدر طاقة الاديب على توثيق الارتباط بالتراث تقديرا واقعيا بريئا من اية وقدة عاطفية .

لقد قلت ، في مطلع البحث ، ان التراث العربي ـ كأي تراث آخر ـ انما هو انماط حضارية انحدرت ـ بعد تحوير وتعديل ـ من الاصول جيلا عن جيل .. واضيف الان الى ذلك ان هذه الانماط قد استغرقت الاثر عربيا واسلاميا في الادب والعلم والفن والحياة . فاذا ادركنا ان التراث ، في مفهومه الارحب ، يحتضن المنارة والحكاية والطلل والمحراب والقصيدة والنقود والبلاغة والطب والهندسة والكيمياء والمنطق والفلك والنحو والزراعة واللغة والتاريخ وعلم البحار والتصوير والجغرافيا والنحت والرقم المكتوبة والفلسفة وشواهد القبور والعمارة والصيدلة والموسيقى والتفسير والعقائد والبيطرة وعلم الكلام والانصاب والفقه .. وجميع الاثار المعنوية المادية الاخرى ، فان هذا الادراك سيعصف دونما شك بالخرافة التي شربناها خدعة كبيرة حين اعتقدنا ان الاديب العربي دون الالهة وفوق أهل الخطوة ، وانه وحده يستطيع ان يخرق الارض طولا ، ويرجم كوكبا بكوكب ، ويجني من النخلة رمانا ، وانه دون سواه القادر على توثيق الارتباط بالتراث العربي .

ان المؤتمر الراهن للادباء العرب حين طرح هذا التوثيق هدفا للبحث .. انما طرحه مؤمنا بأن التراث العربي اما أدب واما تاريخ أغمض عليهما مخطوط قديم .. وقد فاته انه موروث حياتي متكامل لا يملك الاديب العربي أمامه ـ وهو الضعيف عتادا وكفاية ـ الا التهيب والخوف .

وعندي ان هذا الاديب معذور بازاء النقد الصارم العادل الذي سيكشفه عاجزا عن توثيق أي ارتباط بأي حقل من حقول التراث العربي .. لانه بملكاته المحدودة ، أمام التراث ، لا يستطيع الانقضاض بقوى متكافئة على الكلمة والرمز والمعادلة والشكل والمصطلح .

وهذا الواقع يبيح لي ان استهجن دعوة الاديب وحده ، في مؤتمر هادف كهذا المؤتمر ، الى ان يكون بطل البرزخ الذي يحجز أمجاد الاصول عن حضارة الفروع ، وان يكلف بتوثيق الارتباط بينهما . ويبيح لي أيضا ان العن هذا الاحتكار الذي ادخل في روع الاديب انه يستطيع بألهاجسة الشعرية والكلمة المجنحة ان يفتح الف قلعة حصينة من قلاع التراث العربي .

لا .. يا هؤلاء ، انني اعتقد أن تراث العرب العلمي بما حوى من رياضة وطب وهندسة وفلك ، وتراثهم الفني سمعيا وتشكيليا .. لا يستطيع اي أديب ـ مهما أوتي من عبقريات ـ أن يوثق الارتباط بينهما.. لان الحرف وحده لا يكفي في هذا التوثيق ، ولان اسطورة (افتح يا سمسم) قد انطفأت وفقدت عنفوانها عبر الالام والعذاب !!

ان توثيق الارتباط بتراثنا العربي لا يمكن ان يناط بامراء البيان وحدهم اذا كنا حقا نريد ان ندعم تصاعدنا الحضاري ، وانما يجب أن يناط فوق ذلك بالتكنولوجيين وعلماء الاثار والفنانين والمهندسين والاطباء وغيرهم .. وبذلك يتاح للمؤتمر تقييم التركة العربية على أفضل وجه تمهيدا لتوثيق الارتباط بها .

ومن هذا المنطلق .. أرفع عقيرتي بضرورة توجيه الدعوة الى ذوي الخبرة والاختصاص من العلماء والفنانين ليتعاونوا ، في مؤتمرات الادباء ، وفي الصعيد التراثي ، مع أهل القلم ، على تنسيق الخطط ورسم المناهج .

واذا كان هناك من يستوعر هذا الطريق ، فاني اقترح مخلصا أن يقطع التراث العربي صلته بمؤتمرات الادباء ليستقل بمؤتمر خاص تنتظم دوراته جميع العواصم العربية في فترات زمنية ثابتة ، وتحفل جلساته بقادة الفكر العربي في مضامير العلم والفن والادب والفلسفة ، وتنفرد توصياته بصرامة العقل والمنطق وسلامة الرؤية . وهذه الدعوة اذا كانت نشازا في مؤتمر مجموع على سلالة من الناس اختصت بفن الكلمة .. فدفعا للاعابيث ارجو ان يصاغ للادب مفهوم جديد يمكن الاديب من الانفتاح ونزع الاقفال في مواجهة التراث .

لقد استوطن الادب ـ في مفهومه الجاهلي عند العرب ـ السنة والسيرة والطريقة ، كما استوطن ـ عند أبي تمام ـ تهذيب الاخلاق . وفي هذا الضوء أصبح أديبا من « يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق » .. وعلى هذا المفهوم رسخت الاستاذة نازك الملائكة .

وعقيدتي أن أديبا كهذا الاديب حبس مهارته الاخلاقية على رؤية الشعر والنثر لا يمكن ان يستقيم في دنيانا الا كواعظ جامع الخلفاء أيام المستضيء بالله .. لانه أعجز من ان ينهض بالمهمة الخطيرة التي تسيطر على توثيق الارتباط بتراثنا القومي .

والمعروف ان الناقد الانكليزي فيليب سدني قد أفاض في الجري وراء التضييق على مفهوم الادب اذعانا لموقف اخلاقي ثابت .. ولربما كان له أثر بالغ في سلوك الادباء الذين تعودت أنوفهم استشمام الاخلاق في الاثر الادبي .. وهؤلاء جميعا ومعهم نازك الملائكة استنبتوا في مشاتلهم الخاصة اديبهم الذي يجب أن يتحلى بالمواضعات الرفيعة!!

ان هذا الاديب ـ النموذج ، وهو وليد الانتخاب الصناعي في مشتل تجريبي ، لن يستطيع بأية حال أن يوازن بين رصيد ورصيد في تراثنا العربي .

وبمعزل عن الاخلاق ، بعيدا عن الاديب الواعظ .. وجدت المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير يذعن لمذهب اخر في التضييق على مفهوم الادب ، فهو بعد ان استبعد عن دائرة الادب جميع الاثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية .. أطلق على الادب معناه الاصطلاحي الذي عرفته مظان الادب المدرسية في أوربا . وجاوز بلاشير هذا المدى

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

ـ تتمة حول توثيق الارتباط بتراثنا ـ

حين قال أن حماسة الشرقيين جعلت من مقدمة ابن خلدون احـــدى الآثار الفذة في الادب العربي .. زاعما ان مثل هـــذه الانقلابات في المفاهيم استثنائية !!

و (أديب) بلاشير ، هنا ، هو أديب الدورة السابعة لمؤتمر الادباء العرب .. وهو الاديب الذي فضحت قواه الخائرة في مواجهة تراثنا العلمي والفني الذي يراد توثيق الارتباط به .. وهو أخيرا ـ اذا كان مهذبا ـ (أديب) فيبلب سدني ونازك الملائكة الذي رأيناه قبـل لحيظة هزيل الساق في مشتله التجريبي .

انني امقت التضييق في مفهوم الادب ، ويســـعدني أن اكاشفه بالبغضاء والكراهية والمقت والحقد .. لانه ، في مذهبي ، جذر معطوب لا يمد الاديب الا بالجفاف والبلادة .

وأنا ، لذلك ، أطالب بترحيل الادب من مفهومه الضيق الى مفهوم أشمل وأرحب .. الى مفهوم (اخوان الصفاء) الاكثر سعة .. الى مفهوم القرنين الثالث والرابع للهجرة الذي جعل الادب مثابة لجميع العلـوم والفنون والحرف والصنائع .. لنكسب من وراء ذلك ما يسمى بالاسلوب المنهجي في الادراك ، ولنتزود بعد ذلك بما يسمى بأسلوب الادراك الحضاري .

وحسبنا ، اذا تمطى مفهوم الادب على سعته ، أن يستوعب المشاركة البارعة في مضامير المعرفة تطبيقا وتصريفا ، ليجسدها بيـــن موجبات الفكر وموجبات الحياة ، ويجعلها سجل نشاط للانسان الحضاري .. وهذا ما ادركه المستشرق الالماني كارل بروكلمان ، وأدخله بحذافيره في موسوعته (تاريخ الادب العربي) تجاوبا مع المصـطلح Literature الذي أطلقته اوربا على مآثر أية لغة وعلى نتاج علمائها وادبائها منشورا ومخطوطا . ومن هنا ينبغي التماس الاديب آخذا من كل شيء أحسنه، ومشاركا في ضروب الثقافة .. كما ينبغي التماسه كـ Literary Man ليؤدي دوره بذكاء فائق متوقد في مؤتمرات الادباء .. مسهما في توثيق ارتباط العرب بتراثهم .

وأنا على ان هذا المؤتمر يشعر عميقا وسيشعر كذلك أي مؤتمر لاحق بأن التراث العربي ركيزة مكينة من ركائز النهضة الراهنة ، وان الاستغناء عنه ضلال ، ولذلك بان واجبا ان تتزاحم المؤتمرات عـلى تجنيد الصفوة من الادباء العلماء والادباء الفنانين والادباء الادباء للتعاون على توثيق الارتباط به .. وبغير هذه الصفوة يضل السعي ، وينحرف الركض الى ما ليس وراءه طائل .

ان تراثنا العربي ، على الصعيد الادبي ، وصف الواقع وصفـــا صادقا ، وانتبش دفائنه ، ودرس نقائضه ، وانه على الصعيد العلمي استقرى ومحص واستدل واستنبط .. فهو لذلك تراث معجزة . وانني اذ اقول هذا لا أريد أن اداعب الغرور في صدور أبنائه ، ولا اريد أن اصدهم عن مواكبة الحضارة الراهنة .. ولكني اريد تسخير الامجـــاد القديمة في تحقيق امجاد جديدة ، لان الوجود العربي كيانا وشخصية ومثلا لا يقوى على الاستمرار ولا على البقاء الا اذا وثقت الارادة العربية ارتباطها بأمجاد موروثة في جميع المستويات .

وكلمتي الاخيرة ، في هذا الصدد ، هي ان جميـــــع المؤتمرات السابقة أصدرت توصيات ما تزال الى اليوم تحن الى التنفيذ .. ولا سيما فيما يتعلق بالتراث العربي . واني أخشى أن تكون توصيـــات هذا المؤتمر هدفا لنفس المصير البائس الذي التقم سواها .

أنا لست مع الاستاذ فؤاد الشايب حين أعلن في بغداد سنة ١٩٦٥ قائلا : ((دعونا من التوصيات : فمن شاء فلينفذ ، ومن شاء فليغلـــق الباب بوجه التوصيات وأصحابها .. لنترك التوصيات ، ولنقل أن خير ما نحصد من هذه المؤتمرات هو اللقاء بما يحمله من تعارف وتآلف)) .

انني اخالفه في الرأي ، واعتقد جازما أن بشاشة اللقاء وحدها لا تكفي في مساجلة الامبريالية والصهيونية ، وان حلاوة اللقاء وحدها لا تكفي في توثيق الارتباط بتراثنا العربي ... بل يجب أن تأخـــذ التوصيات سبيلها الى التحقيق والتنفيذ ليقال ، بعدئذ ، أن مؤتمر الادباء العرب قد تمخض عن نداء ايجابي للعمل المثمر .

بغـــــداد

عبد الحميد العلوجي

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه مـــن اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحـدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق مـا استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كمـا يقـول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكـد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميه مصلحته الموقتـة من أبنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير أبنائها ...

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الـــى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبـرى ، وعـرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقـة « سد الجبل » في أعالـي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشـادة بالخدمات التـــي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي